عـزة الإســلام

الأخ ن. أبو جهاد

رأيت في شبه ما يراه النائم ، وكثيراً ما يرى النائم ما يفتقده اليقظان في الواقع القائم .. رأيت عالماً جليلاً مهيباً ، ممّن يتمثل فيهم قول الله تعالى : ﴿ ... **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ... ﴾ [فاطر : 28] ويتحقق في قلوبهم قول رسول الله ﷺ : « **مَن أراد بعلمه وجه الله هابَهُ كلُّ شيء** » ..

رأيته يظهر في آخر أيام رمضان ، من عالَم الماضي الجليل ، ويعود إلى أرض مصر التي قضى فيها ردحاً من عمره ، وعَرَفَتْ منه مواقف الإباء والجهاد .. وإذا به يتخطّى أمام ناظري جماعاتٍ من رجال الشرطة والمخابرات ، وهم ينظرون إليه نظرة المغشيِّ عليه من الموت ، لا يملكون له ردّاً ولا صدّاً ، وكيف يملكون ذلك وهو من عمالقة التاريخ الجليل في مصر وفي سورية وفلسطين ، وليس من أقزام الحاضر الذليل المهين ، ممّن دُرِّب هؤلاء على صدّهم وردّهم ، وعلى سَوْقهم وجمعهم ..

ودخل العالم الجليل المهيب على جمعٍ من العلماء ، أحاط بعضهم بحاكمٍ بأمره ، وجلس بعضهم الآخر قبالته ، يستمعون إليه أو يحاورونه .. وكان لبعضهم لحىً أطول من لحية العالم المسنّ ، وأجسامٌ أشدّ قوةً من جسمه العملاق ، ولكنّ في وجهه نوراً يبهر الأبصار ، فحملقت العيون تنظر إليه بذهول ، ووجمت بعض الوجوه لمرآه ، واستبشرت وجوهٌ أخرى على استحياءٍ تواريه ، واكفهرّ وجه الحاكم بأمره ، فانطلقت نظرات الشرر من عينيه ، وظهر الاضطراب على حركات يديه ، وقطع حديثَه ليقول للعالم الجليل بصوتٍ غاضب :

– ما الذي جاء بك إلى هذا المكان ، وأنا لم أصدر التعليمات بتوجيه دعوة إليك ؟

وران سكونٌ عظيم ، وكأنّ على رؤوس الحاضرين الطير ، واشرأبّت بعض الأعناق نحو العالم الجليل المهيب ينتظر أصحابها الجواب ، وغاصت رؤوس أخرى بين الأكتاف على وَجَل .. وقطع السكونَ صوتُ العالم قوياً جهوريا :

– جاء بي الحقّ الذي تخشاه على نفسك وحكمك ، ويخشاه على نفوسهم وعلى متاع الدنيا بأيديهم مَنْ تركوه في الكتب مهجوراً وتجمهروا حولك ..

قال الحاكم بأمره متمالكاً نفسه ما استطاع إلى ذلك سبيلا :

– فاجلس إذن واستمع كما استمع سواك ، والتزم سبيل الحقّ الذي رسمتُه قبل حضورك

– إنّما ذاك ما تريد .. وأريد أمراً آخر هو الأمر الصواب ، فاستمع أنت ولْيستمعِ الحاضرون لما أقــول ، فإنّمــا أقول ما أمر الله بقوله في مثل هذا المقام

وتململ الحاضرون في مقاعدهم ، واتجهت أنظار كثيرٍ منهم نحو الأبواب فكأنّما يريد بعضهم الفرار ، أو يتوقّع أن تنفتح الأبواب وتقتحم القاعة ثُلَّــةٌ من أتباع الحاكم بأمره فتقتاد هذا الرجل الذي خرج على أمــر الحــاكم علــى رؤوس الأشهاد .. ولم يهتزّ العالم الجليل المهيب في وقفته ، ولا ظهرت الرعدة على مفاصله كما تظهر –هذه الأيام– على مفاصل كثيرين سواه في مواقفَ دون موقفه .. وكأنّما أخذت الحاكمَ بأمره العزّةُ بإثمه ، وأراد متابعة ممارســة التحدّي الذي مارسه لتوّه قبل ظهور العالم الجليل المهيب ودون أن يجد اعتراضاً كافياً على باطله ، أو صوتاً بــالحق كاشفاً لضآلة أمره وجهالة قوله .. فانبرى لسانه يردّد ما كان يقول قبل قليلٍ ويعيد :

– فإنني أقول وأكرر ما أقول : لا دينَ في السياسة ولا سياسةَ في الدين ، فإنْ أردت الدين فالْزم مسجدك أو التزم بالخط الذي وضعتُه لسواك ، وإن أردت السياسة فعليك بالأحزاب التي سمحتُ بها والقنوات السياسية التي صنعتُها ..

– إنك بهذا الذي تقول وبكثيرٍ مما تفعل قد اخترتَ لنفسك أن تكون في إحدى فئاتٍ ثلاثة ، فأنت كــافرٌ مــن الكافرين ، أو ظالمٌ من الظالمين ، أو فاسقٌ من الفاسقين .. وإنّ الهيكل الذي تصنعه بأحزابه وقنواته ومزاميره وطبوله ، هو هيكل حكم الجاهلية الذي يأباه رب العالمين أن يكون في ديار المسلمين ، وأمرُ الله فوق أمرك وأمر سواك ، في مساجده ، وفي كلّ مكانٍ من أرضه .. وإن في طاعتك الضلالَ والخسران ، وفي طاعته ومعصيتك النجاة والحق المبين والفوز العظيم

– واستشاط الحاكم بأمره غضباً ، ولكنّه تمالك نفسه مظهراً (ديمقراطيته) ، ورفع صوته يحاول أن يطغى به على الصوت المدوّي في المكان ، وقد انكفأت له الوجوه وطأطأت الجباه ، وانعقدت الألسن عن الكلام ..

– فإنّك أيها العالم المغرور بعلمه تتحدّث بلسانٍ واراه التراب ، وتريد أن تعود بدولتي وشعبي إلى الوراء أكثر من ألف عام ، وأريد أن أخرج بمصر من جهود الحكم الأجنبي ، وأبني بناءها العظيم على أســاس حــضارتها الزاهــرة الراسخة قبل سبعة آلاف عام ..

وعاد الصوت المهيب يجلجل فوق رؤوس الواجمين :

– تريد أن تعيد عجلة التاريخ سبعة آلاف سنة ، وأريد أن تتابع مصر طريقها العظيم على عجلة الإسلام الــذي أعزّها فاعتزّت به .. بأرضها التي لا تملكها ولا يملكها سواك فالملك لله وحده يــورث الأرض لعبــاده الــصالحين ، وبشعبها الأبيّ المناضل على الدوام ، وهيهات أن يطول به عهدٌ من عهود البغي والاستبداد ..

– تريد جاهليةَ ﴿ ... **أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى** ﴾ [النازعات : 24] وأريــد إســلامَ ﴿ ... **وَلِلَّــهِ الْعِــزَّةُ وَلِرَسُــولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ** ... ﴾ [المنافقون : 8] .. وإنما أنت مدّعٍ ادّعاءً باطلاً حتى في هذا الذي تقول به ، فعجلتــك الْمُــشَحَّمَةُ بزيت فرعون ومَلَئِه مصنوعةٌ من خشب الصلبان الأمريكية ، وبتصميم أعداءِ مصر من اليهــود المغــضوب علــيهم وهندستهم .. ومسيرتك التي تريد سوق مصر وأهلِها وراءك فيها ، إن شادت قبوراً جديدة مع قبور الأهرامــات ، فإنها تحفر حول مساجد الإيمان في جامعات العلم قبوراً للشهداء الصالحين لِتدوس عليها بأقدام المجرمين ..

– إنني أنا الذي أصنع مصر كما أريد فالزم حدود أدبك ، وأبنيها كما أريد فعُدْ إلى جدران مسجدك ، وأَدخلُ بها الحروب متى أريد على من أريد فحوّل وجهة حماسك وارجع عن مقصدك ، وأقيمُ فيها صرح السلام كيف أريد فاحذر على روحك من التمادي في اعتراضك .. أنا صوت مصر ولا أسمح لأحدٍ أن يعكّــر صــفو المجــالس الــتي أعقدها ، أو يعرقلَ المسيرة التي أقودها إلى حيث أريد .. ولن تجد في مصر اليوم أحداً يتبعك في شذوذك عــن هــذا الطريق إلاّ –إذا شئتَ– أولاداً صغاراً جاهلين لا يغيّرون ولا يبدّلون شيئاً ممّا أريد ..

ورفع العالم المهيب رأسه عالياً فبدا بقامته العملاقة مخيّماً على المجلس ومن فيه ، ينظر إلى الحاكم بأمره من عــلٍ ويجيبه بصوت بدا كقرع الطبول في أسماع الحاضرين وهو يقول :

– ذاك يا فرعون الصغير ظنّ الطغيان الذي أردى بسواك من قبلك وسيرديك ، تحسب نفسك قادراً على كــل شيء إذْ كبــُر في نفسك الطاغوت ولا يكبر الطاغوت إلاّ في النفوس الصغيرة ، والله أكبر من كلّ طــاغوت ، والله قادرٌ على أن يُخْرِجَ مصر من محنتها ، وأن يزلزل تحت أقدامك صرحك الذي تبنيه كما زلــزل صــروح النمــرود وفرعون وعادٍ وقوم ثمود .. وستنتصر مصر بإذن الله على كلّ ما تريده لها من مصيرٍ أسود ، ستنتصر على أيدي من يجاهدون في سبيل الله ويخلصون لدينهم وأمتهم ، وإن كانوا همُ الفئةَ القليلة وكنت وأعوانك وأسيادك مــن الفئــة الكثيرة .. وإنّ هؤلاء الشباب المناضلين الذين تسمّيهم الأولاد الصغار الجاهلين هم أبناء مصر الشرعيون ، من لــبن عزّتها بالإسلام يشربون ، وبقوة صمودها على طريق الإيمان والحق يتحركون ، وعلى طريق انتصار شعبها المستضَعف من الظلم والظالمين برعاية الله يسيرون .. إنهم الجيل الذي يجد بإخلاصه وجهاده عون الله ونصرته ، وإنِ افتقــد في مجالسك العون والنصير ..

عد إلى صوابك ورشدك أيها الحاكم بأمره إن أردت النجاة ، وإلاّ فاعلم أن مصر ككّل أرضٍ أعزّها الله بالإسلام ولا تجد العزّة بسواه ، قد عرفت من قبلك من كانوا أكبر منك شأناً ، وأشد منك تجبّراً ، وأبعد للناس ظلماً وعلــى

الحق عدوانا .. وذهبوا .. وبقيت مصر رافعة الرأس بالإسلام ، ناصعة الجبين بالجهاد ، ولا تغرّنــّك جموعٌ تحشدها على باطل ، فالباطل بكلّ أشكاله ينهار في غمضة عين ، ويندم كلّ من ينخدع به وقد يفوت عليه الأوان ، والحــقّ يأتيك من حيث لا تحتسب ولا ترتقب ، فيأخذك أخذةً واحدة ، ثم تجد نفسك بين يدي العزيز الجبّــار وكأنّــك لم تلبث إلاّ عشيةً أو ضحاها ، فتحاسَب الحساب العسير ، وتنال -إن قضيت نحبك المحتوم دون توبةٍ نصوح- أســوأَ مصير

وأشار الحاكم بيده إشارةً فانفتحت الأبواب ، وظهرت الأسلحة موجّهةً إلى القاعة لا تكاد تُرى مــن ورائهــا الأجساد ، وتلفّت كثيرٌ من الحاضرين وقد أصابهم الذعر ، وحاول بعضهم التواري وراء قامة العالم الجليل المهيــب المنتصبة وسط المكان كالطود الشامخ ، لا تطرف له عين ، ولا يحجب نورَ وجهه الضباب وقد عمّ أرجاء المكان ..

وجال الحاكم بأمره ببصره بين الوجوه ، ثم قال حانقا :

- أليس فيكم يا شيوخ من يردّ هذا المارق إلى الصواب ؟ .. أليس فيكم بما حُمِّلْتُم من العلم مــن يــردّ علــى كلامه ؟ .. أليس لكم أيها الملأ من المكانة والوجاهة وقد أغدقتُ عليكم ما أغدقت مــا يُمكّــنكم مــن إســكاته وإفحامه ؟ ..

ونكّس بعضهم الرؤوس ، واتجهت أبصار بعضهم الآخر إلى كبيرهم فتململ أمام نظرات الذعر والاســتنجاد ، ووقف في مكانه وسط بضع خشباتٍ مسنّدات ، ففكّر وقدّر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر فقال بعد طول انتظار :

- إنّنا نقّر بسعة علمك وطلاقة لسانك ، وإنّ حاكمنا الذي بايعناه على الطاعة من دون سواه قد تفضّل فــأمر بتشكيل مجلسٍ أعلى نتشاور فيه بما نريد ، وكيف نريد ، ثم نرفع إليه ما نقّرر لينظر فيه برأيه ، فكن أنت رئيــسَنا في مجلسنا الأعلى إن شئت ، ولا حاجة لك بشيء لتنالَ ذلك كلّه إلاّ أن تقبل ببعض ما قبلنا به جميعاً وأعلنّاه جميعــاً ، من ولاءٍ للحاكم وعهده الميمون ، ثم إنّ لك بعد ذلك مطلقَ الحرية في أن تقول ما تريد ، فنحن عائلةٌ واحدة تتشاور في أمرها ، حتى تسير الأمة في طريقها المرسوم ، فاحفظ للأمة وحدة الكلمة ، ولا تشق عصا الطاعــة ولا تفــارق الجماعة ، وكن معنا يكن لك ما لنا وعليك ما علينا ..

وتبسّم العالم الجليل المهيب ابتسامة الإشفاق والرثاء ، ونطق فكان في صوته الغضب لحق الله فقال :

- (يا قوم أنتم في وادٍ وأنا في واد .. الحمد لله الذي عافاني ممّا ابتلاكم به) .. ليس لي بما لَكُمْ حاجةٌ ولا رغبة ، ولا أستطيع حمل ما تحملونه على كاهلكم من أوزاركم وأوزار من يتبعكم ..

يا قوم إلى أين أنتم ماضون ؟ .. وبأية وجوه تقابلون العزيز المقتدر يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلاّ مــن أتــى الله بقلب سليم ؟ ..

يا قوم ما تفعلون بقول ربّكم جلّ وعلا : ﴿ **مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا** ﴾ [الإسراء : 18] ؟

ما تفعلون بقول ربّكم جلّ وعلا : ﴿ ... **أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ﴾ [التوبة : 13] ؟

يا قوم ما تفعلون بأحاديثِ نبيكم عليه الصلاة والسلام وهو القائل : « **لاَ طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِق** »

« **ما آتى الله عالماً علماً إلاّ أخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيّين أن يبيّنوه للناس ولا يكتموه** »

« **لا ينبغي لامرئٍ شهد مقاماً فيه حقٌ إلاّ تكلّم به ، فإنه لن يقدّمَ أجلَه ولن يحرِمَه رزقاً هو له** »

« **من أعان ظالماً بباطلٍ ليدحض به حقاً فقد برئ من ذمّة الله وذمّة رسوله** »

« **إنّي لا أتخوف على أمتي مؤمناً ولا مشركاً ، فأمّا المؤمن فيحجزه إيمانه ، وأما الكافر فيقمه كفره ، ولكــن أتخوّف عليها منافقاً عالم اللسان ، يقول ما تعرفون ويعمل ما تنكرون** »

يا قوم ما تفعلون ببيعة رسول الله ﷺ فوق كلّ بيعة ويد الله فوق أيدي من يبايع « .. وعلى أن نقول كلمة الحق أينما كنّا لا نخاف في الله لومة لائم » ؟

يا قوم ما تفعلون بقول الإمام ابن حنبل لقومٍ جاؤوه بمثل ما جاء به بعضكم : (إنْ أجاب العالم تَقِيَــةً وجَهِــلَ الجاهل فمتى يتبين الحق ؟ .. وكيف تصنعون بحديث خبّاب عن رسول الله ﷺ أَنْ كان قبلكم يُنْشَرُ أحدُهم بالمنشار ثمّ لا يصدّه ذلك عن دينه) ؟

يا قوم ما تفعلون بقول سفيان الثوريّ عن حكامٍ هم في ظلمهم دون ظلم مَنْ تخشونهم : (ما أخاف من إهانتهم لي وإنّما أخاف من إكرامهم فيميل قلبي إليهم) ؟

يا قوم اتقوا الله فيما أنتم فيه .. أين علمكم الذي تعلمون ؟ .. أجعلتموه في بطون الكتــب ومــلأتم البطــون بالشهوات ، وهجرتم العمل به سراً وجهراً طلباً لدنيا أنتم مهاجرون منها–إن شئتم أم أبيتم– إلى يومٍ لا تنفــع فيــه الظالمين معذرتُهم ، ولا ينجي فيه الضعفاءَ ضعفُهم : ﴿ **وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّــا**

لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴾ [إبراهيم : 21] ..

وجلس كبير الحاضرين في مكانه لا ينبس بكلمة ، وقاطع الحاكم بأمره العالم الجليل المهيب ووقف يقول مُرغيـــاً مزبدا :

– أنت مدسوسٌ علينا في مجلسنا ، ولا مكان لمثلك في مثل هذه المجالس .. فارجع لمن أرسلك من الحكام الـــذين يهاجمون ما أصنع ويصنعون مثله وزيادة ، وإلاّ وضعتك في سجنٍ معدٍّ لأمثالك فلا يُسمع لك صـــوت ولا ينفعـــك اعتراض ..

ونظر العالم الجليل المهيب إليه ، ورفع جبينه إلى العلياء ، قائلا :

– أمّا الحكام الذين تتكلّم عنهم .. ومجالسُهم وندواتُهم وبطانتُهم كمجالسك وندواتك وبطانتك ، وأعمـــالُهم وأوزارهم كأعمالك وأوزارك ، فإن مصيرهم كمصيرك ، وكلمة الحق التي تقال فيك هِيَ هِيَ كلمة الحق التي تقـــال فيهم ، وما كان لأمثال هؤلاء أن يرسلوا بمثلي .. وإنّما جعلك الله وإياهم في السبل المتشعبة الخارجة عن الـــصراط المستقيم ، فمن سار فيها وإياكم كان مع الشيطان وافتقد تأييد الرحمن .. وأما السجن الذي تهدّدني به فقد عرفتُه من قبل ولا أخشاه وإنما يخشاه من يخشاك ، وعرفه الكثيرون مثلي ورأَوا فيه ما رآه ابن تيمية في سجن القلعة بدمشق في مثل هذه الأيام الحالكات المظلمات ﴿ ... **فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ** ﴾ [الحديد : 13]

وخرج الحاكم بأمره عن طوره فصاح ببعض سدنته :

– خُذوه فغُلّوه ..

فقال العالم الجليل المهيب :

– ذاك حكم الله أنطق به لسانَك ، وستسمعه يوم القيامة وأمثالُك من كل متجبرٍ يصّر على الجَوْر والحكم بغير ما أنزل الله ، فقد بلغني عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **إنَّ أشدَ الناس عذاباً يوم القيامة رجلٌ أشركه الله في حكمـــه ، فأدخل عليه الجَوْرَ في عدله** »

واختلطت أمام ناظري المشاهد باقتحام المدجَّجين بالسلاح القاعةَ على من فيها ، وتنبّهت علـــى قـــول أحـــد الأصحاب من حولي :

– مَن هذا الذي تكاد تهذي بالحديث عنه وأنت بين النائم واليقظان ؟

وتفكّرت في نفسي لحظات ، وعدت إلى عالم المحسوسات ، ثم قلت :

– ذاك من لا نرى مثلَه هذه الأيام إلاّ نادرا .. ذاك الذي قال لأصحابه ذات يوم : (استحضرت في قلبي خـــشية الله فصار السلطان في عيني كالقط) .. ذاك الذي كان يتكلّم بعزّة الإسلام ، العالم المجاهد العزّ بن عبد السلام